هيكل القصيدة الأندلسية

في عصر بني الأحمر

الدكتور: عيسى فارس *

الدكتورة : رؤى قداح **

رامي عبد الكريم خضر***

الملخص

إنّ الفترةَ الغرناطيةَ التي امتدتْ قرنين ونصفاً أو يزيد، أفرزتْ نتاجاً شعرياً شعراءَ أسهموا في بناء الحضارة الأدبيةِ والثقافية لغرناطةَ، وقد كُتبَ لهم أن يشهدوا سقوط غرناطة عام اثنين وتسعين وأربعمئة وألف (1492م). ويُعدّ عصر بني الأحمر غني الإنتاج، خصب المعاني، منفتح الأفكار ، وقد حظيت القصيدة الأندلسية بدراسات كثيرة إلّا أن دراسة هيكل القصيدة في عصر بني الأحمر لم يلقَ العناية الكافية، وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات المغربية والمشرقية قد قدّمت مادة غنية في دراسة النص القديم، وركزّت على دراسة تجارب شعراء محددين ، ومن هنا كان حرياً أن نحاول دراسة هيكل القصيدة في تلك المرحلة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الدراسات التي تناولت دراسة مصطلح بناء القصيدة دراسات قليلة، وأنّ أكثر الدراسات تميل إلى دراسة مصطلح (بنية القصيدة)، ومن أهم شعراء هذه الفترة : ابن سهل – ابن فركون – ابن الأبّار– يوسُف الثالث– أبو حيان – عبد الكريم القيسي– ابن زمرك – ابن الغمّاز– قاسم بن عبدالله البلنسي – ابن حبيش – ابن الجنان – الفازازي – عبدالكريم البسطي – ابن الخطيب.

كلمات مفتاحية :

مقدمة القصيدة – حسن التخلّص – خاتمة القصيدة .

* أستاذ– قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية .

** مدرّسة – قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة تشرين – اللاذقية – سورية.

***طالب دراسات عليا (دكتوراه)– قسم اللغة العربية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين– اللاذقية– سورية .

مقدمة:

فضّل الأندلسيون القصائد ذات الموضوع الواحد التي تميل إلى الاهتمام بقضية واحدة دون اللجوء إلى تجزئة القصائد إلى وحدات موضوعية صغرى تشتت الذهن و تلتزم عمود الشعر في جوانبه الشكلية. ومع ذلك، فإن القصيدة الشعرية في كلتا الحالتين تكوّنت من أجزاء ثابتة في هيكلها هي: المطلع والمقدمة والغرض والخاتمة وهي أجزاء متلاحمة متماسكة فيما بينها دون حواجز واضحة وثيقة الصلة مع الموضوع العام في حالة الوحدة الموضوعية، أما في حالة التعدد ، فإنها تتناول موضوعات أخرى قد تفتقر إلى تلك الصلة بالغرض الرئيس من هنا جاءت العناية بدراسة المقدمة والتخلّص في هذا النوع من القصائد دون اختلاف النسق أو تباين في أجزاء النّظم؛ لأن النّفوس والمسامع إذا كانت متدرّجة من فن مباين له دون جامع بينها وملائم بين طرفيها وجدت نفوراً من ذلك ونبت عنه.

منهج الدراسة .

تستند الدراسة إلى المنهج البنيوي الذي يهتمّ بدراسة النسق اللغوي للنّص الشعري كبنية مستقلة بذاتها، وتحليل النص تحليلاً لغوياً بعيداً عن المؤلف لإدراك العلاقات الداخلية بين المفردات اللغوية، والوقوف على درجة ترابطها ودراسة النص الشعري من المنظور اللغوي والفني والجمالي. وتحليل المعاني الجديدة التي تؤديها عناصر النص من ألفاظ، وتراكيب، وصور، وموسيقا.

أولاً : مطلع القصيدة .

رأى النّقاد في مطلع القصيدة أهمية كبيرة، فهو مفتاحها وأوّل ما يتلقاه المتلقي منها، ولذلك ينبغي أن يكون مقبولاً، يقع في النفس موقعاً حسناً، جاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري من ذلك ما يؤكد أن المطلع هو:" أول ما يقع في السمع من القصيدة، و الدال على ما بعده، المُتَنَزَّل من القصيدة منزلة الوجه والغُرَّة . فإذا كان بارعاً وحسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً، وصدر بما يكون فيه من تنبيه و إيقاظ لنفس السامع، أو أشرب بما يؤثر فيها انفعالاً ويثير لها حالاً من تعجيب أو تهويل أو تشويق، كان داعياً إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده".[1]

وكانت للنقاد جهود ملحوظة في المطالع تبيّن ما يجب أن تكون عليه كي تتصف بالجودة وما ينفِّر المتلقي منها، وقد اعتنى شعراء العصر الغرناطي بمطالعهم كغيرهم من الشعراء الأندلسيين، لما وجد فيه من أهمية في الشعر فهو مفتاحه ومطلع الكلام وعنوان النظام، محله من القصيدة محل الوجه من الإنسان، إلاّ أنه وقع أحياناً بما يسيء لحسن المطلع وقبوله في النفس والسمع.

ومن مظاهر عناية الشعراء بالمطلع مناسبته لمقصد الشاعر، ومقتضى الحال، وموضوع القصيدة، واعتماده الألفاظ، والمعاني المناسبة، والجيدة التي تنظر في أحوال المخاطبين، وتميل إلى شهواتهم، وتتجنب ما يكرهون سماعه، وخلوّه من المآخذ النحوية وتنويع صيغه بين الإنشاء والخبر، وبعده عن التعقيد، وحسن مصراعيه، وحسن البيت الثاني الذي يليه. وممّا قاله ابن الخطيب في نظمه مطالع شعره. (من البسيط)[2]

---

[1] - العسكري. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. **كتاب الصناعتين**، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،1952م - ص 435.

[2] – ابن الخطيب. لسان الدين السلماني. ***الديوان***، حققه :د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1409هـ، 1989م، المجلد الأول، ص118.

الحمد لله موصولاً كما وجبـــــــــــــــا فَهْو الَّذي برداء العزَّة احتجبـــــــــــا

فقد أظهر براعة وجودة في نظم المفردات ومراعاتها لموضوع القصيدة الذي جاء في الاحتفال بإتمام ولد السلطان لقراءة القرآن، فاستهله بذكر " الحمد لله " الذي لا ينقطع، وذلك مما يبعث إلى الشوق والإيمان في نفس المتلقي ويجعله موصولاً بالذات الإلهية بالتسبيح والتحميد والتكبير، وهو مطلع اشتمل على موسيقا متمثّلة بالتصريع تضافرت مع اصطفاء المفردات وملائمتها للمعاني زادته حسناً ورونقاً. ومن ذلك أيضاً قوله في مطلع قصيدة يمدح فيها أمير المسلمين أبي الحجاج : (من البسيط) [1]

سُـــعُودُكَ لا مَـا تَـدَّعِـيـهِ الـكَـوَاكِـبُ وَجُودُكَ فِينَـا لا السَّـــحـابُ السَّـــوَاكِـبُ

ومن المطالع التي راعى فيها الشـاعر ابن الجنّان جودة اللفظ والمعنى معاً بما يتفق مع موضـوع القصـيدة، قوله: (من الطويل)[2]

ســـأَصـــبرُ حتّى ينجزُ اللهُ وعـدَهُ ولابـدَّ لـلـرَّحـمـنِ أَنْ يـنـجـزَ الـوعـدَا

فقد أمدَّه بدفق موســيقي تألفه الأســماع يوفره البحر الطويل ذو التفعيلات المتناوبة، وأظهر عناية بتأليف المفردات وانسـجامها دون تعقيد، وما يبدو في هذا المطلع تنوّع الأسلوب بين صـيغة الخبر في الشـطر الأول "سأصبر" وصيغة الإنشاء المتمثلة بالاستفهام في البيت الثاني في قوله: (من الطويل)[3]

ألـمْ يـعـدِ اللهُ الـكـريـمُ بـفضـــلـهِ ؟ مع اليسـرِ يسـراً ينجحُ السـعي و القصـدا

فصـيغة الاسـتفهام "ألم يعد الله الكريم بفضـله" يمكن أن يجعلها مظهراً من مظاهر الحيوية الدالة على عنايته بمطلع قصـائده. وذلك لما للاسـتفهام من دور في التعبير عن الانفعال المتمثّل بانتظار عفو الله، وابن الجنّان ممّن يحرصـون على تلوين مطالعهم بعناصـر الموسيقا الداخلية و الخارجية، لذلك كان توظيفه عنصـر التكرار (وعد – ينجز) فضلاً عن اهتمامه بالمعاني التي استمدها من القرآن الكريم.

وممّا أشار فيه المطلع إلى الغرض العام للقصـيدة الشـعرية، مطلع ابن زمرك الذي يمدح فيه السلطان أبا عبد الله، في قوله: (من الكامل)[4]

عـامَلْـتَ وجـهَ اللهِ فـارْقُـب نصـــرَهُ فهـو الـجَزاءُ لقولـهِ : إن تنصـــرُوا

فابن زمرك يبدأ قصـيدته بمطلع يناسـب موضـوع القصـيدة، وهو يعد الممدوح بالجزاء والخير، وينتقل إلى موضـوع القصـيدة في البيت الثاني، وكذلك مطلع قصـيدة يتحدّث فيها ابن زمرك عن محاربته لشـهوات النفس، وميله نحو الرّشد والتعقّل، وقد بلغ من العمر ما بلغ، فيقول: (من الطويل)[5]

أَثُوبُ إلى حلمي الكفيـلِ بســـلوانِ وأُصْـــلِحُ من شَـــاني وإن رَغِمَ الشّـــاني

---

[1] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص120.

[2] – ابن الجنّان الانصاري الأندلسي. شاعر المديح النبوي بالأندلس في القرن السابع الهجري، ***الديوان***، تحقيق: د. منجد مصطفى بهجت، 1410هـ، 1990م، ص 79.

[3] – ابن الجنّان. ***الديوان***، ص79. إشارة إلى قوله تعالى : **(فإنّ مع العُسرِ يسراً)** الشّرح : 5 ، مع مخالفة لغوية بمفردة (العسر) .

[4] – ابن زمرك الأندلسي. محمد بن يوسف الصّريحي. ***الديوان***، تحقيق: د. محمد توفيقي النّيفر، دار الغرب الإسلامي، ط1 ، 1997م، ص50. إشارة إلى قوله تعالى : **(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ)** : آل عمران : 160 .

[5] – ابن زمرك الأندلسي. ***الديوان***، ص 181،

ثنيتُ عِنانَ النّفس عن ملعبِ الصِّبا ولبيّتُ داعي الرُّشدِ من قبلُ ناداني

والمطلع مرتبط مع الموضوع العام للقصيدة ، وفي حديث حازم القرطاجني ما يفيد أن قيمة المطلع تتجلى في مناسبته مقصد المتكلم فيقول: " وملاك الأمر في جميع ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته ، فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة وكذلك سائر المقاصد ".[1] ومما عيب في بعض المطالع ما قاله ابن الخطيب في الوصف : (من الكامل)[2]

حجراً رماه المنجنيق، فَشأنُهُ متطأطئٌ متدافعٌ ملمومُ

إضافة إلى وعورة الألفاظ، فتلفظها الأذهان، نلحظ النهاية غير الموفقة بين مصراعي البيت وعدم انسجام كل منهما في إعطاء المعنى المراد، وكما قال ابن رشيق في كتابه العمدة : "إنما يؤتي الشاعر في هذه الأشياء – العيوب – إمّا من غفلة في الطبع وغلظ، وإمّا من استغراق الصنعة، وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أين يذهب ". [3]

وقد جعل الشعراء مبدأ كلامهم دالاً على مقصده، وافتتحوا القول بما هو عمدة في غرضه، واستثمروا ما يجب أن تتوافر عليه المطالع من حسن العبارة وشرف المعنى وتمامه، وحسن الألفاظ ودلالتها على المعاني، وقد وُفِّقوا في نظم بعضها، وخرجوا عن ذلك في بعضها.

ثانياً : مقدمة القصيدة .

مقدمة القصيدة تقليد فني وظاهرة كبرى في شعرنا العربي القديم، حفلت بها دراسات القدماء والمحدثين فأشبعوها درساً ونقداً وتفسيراً ".[4] وتعددت أشكال المقدمات وأنواعها عند شعراء العصر الغرناطي واختلفت مضامينها وتقاليدها منها المقدمات الطللية والغزلية والخمرية والطيفية والطبيعية، مع اهتمام بالمقدمات الطللية والغزلية أكثر من غيرها، وهذا لا يخرج عن كثرة تداولها في الشعر العربي على اختلاف مراحله وعصوره.

ولإيراد المقدمات عند شعراء العصر الغرناطي علاقة بالغرض الرئيس، فأكثرها كان في قصائد المدح الخالص والتهاني، في حين جاءت أكثر القصائد الخالية من المقدمات في أشعار الجهاد والفتح والمقطوعات التي لا تحتمل المقدمات، وهذا ما أكّده ابن الأثير بقوله: " أما إذا كانت القصيدة في حادثة من الحوادث كفتح أو هزيمة جيش أو غير ذلك، فإنه ينبغي ألا تبدأ بالغزل؛ لأن هذا يدل على ضعف قريحة الشاعر وقصوره عن الغاية أو على جهله بوضع الكلام في مواضعه، ولأن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث ".[5]

---

[1] – القرطاجني. حازم. ***منهاج البلغاء و سراج الأدباء***، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية، تونس، ط1، 1966م. ص310.

[2] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الثاني، ص 567.

[3] – القيرواني. أبو علي الحسن بن رشيق. ***العمدة في صناعة الشعر ونقده***، تحقيق: د. محمد قرقزان، ط2، مطبعة الكاتب العربي بدمشق،1994م.ج1، ص 223 .

[4] – انظر : عطوان. د. حسين. ***مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي***، ط1، دار المعارف بمصر، 1970م، ص23–209.

[5] – ابن الأثير. ***المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر***، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة، 1939 م، 236/2.

ومن الأمثلة المؤكدة لما ساقه ابن الأثير، قول ابن الخطيب في تهنئة أبي الحجاج بفتح كركبول من ثغور العدو:(من الكامل)[1]

بشـــرى يقوم لـهـا الزَّمـان خطيبـاً تـأرَّجُ الآفـاقُ مـنـهـا طِـيـبَـــــا
هـذا طـلـوعُ فـتوحـكَ الـغُرِّ الّتـــــي ما كان طالع سـعدها لِيغيبـــــــــا

فاستهل القصيدة بالتهنئة مباشرة دون مقدمة غزلية أو طللية، ونراه يبدأ نصّاً آخر يظهر فيه جلاء النصر الذي حققه السلطان على جيش الروم كالصباح ويعمد إلى عرضه مباشرة بقوله: (من الطويل) [2]

هو النَّصر بادٍ، للعيون، صباحـــــــــــه فما عُذْرُ صـــدرٍ ليس يبدو انشـــراحُـهُ
حديثٌ تهاداه الرّكائب فـــــــــــي السُّرى وتُجْلَى على راحِ المسـرَّةِ راحُـــــــــــهُ

أبرز في هذه المقدّمة تفاصيل المعركة، وهلاك جيش العدو وفرار جنده، ووقوعهم في الأسر، وصوَّر جثثه وأشلائه المنتشرة بأعداد كبيرة في كل مكان، ثم ذكر في خاتمتها حبّه للسلطان الذي استقر في القلب، وهذه القصيدة من بدايتها إلى نهايتها لا تخوض في غرض آخر، ولا تمهِّد لاستهلال في الغزل أو الطلل. والقصائد ذات المقدمات التقليدية فقد تنوعت فيها تلك المقدمات عند شعراء غرناطة، فكان منها الطلليات، والغزليات والخمريات، والحجازيات، والشيبيات، وغيرها.

1- المقدمات الطللية والغزلية .

عرف العصـر الغرناطي عدداً وافراً من مقدمات الطلل والغزل الصـرفة، فقد كان الشـاعر الغرناطي يقف عند معاهد أصـحابه فيراها آثاراً داثرة، و معالم دارسـة، قد بدلت من الحياة موتاً، ومن الحركة سكوناً وتتراءى له إزاء هذا المنظر الموحش مواكب حبّه، وذكريات شـبابه، فيتألم لضـياعها، ويبكي على فقدانها. ويبدو أنَّ مقدمات النسيب الطللية عند الغرناطينن كانت تقليداً شعرياً متوارثاً نهجوا فيه أسلوب القدماء ومضامينهم.

وكان ابن الأبّار – بوصفه شاعراً أندلسياً – وفيّاً لهذا المنحى الذي تبنّاه الأندلسيون في افتتاح مدائحهم بالغزل أو وصف الأطلال، فقد بدا جلّ قصائده المركّبة في مدح الحفصيين بمقدمات غزلية في المقام الأول، ومن مقدماته الغزلية قوله يمدح السلطان أبا زكريا: (من الطويل)[3]

أتجـدُ قَتْلي ربّـةُ الشَّـــنَفِ والخرْصِ وذاك نـجـيـعـي فـي مُـخضِّـــبـهـا الـرّخـصِ
تَـوَرّسَ مـا تـعْـطـو بـه مـنْ عـبـيـطـهِ كمـا طَلَعَ السّـــوْســـانُ في صِـــبْغَـةِ الحُصّ

...

لهـــا الله مـــاذا فـــي القلائـــدِ مـــن حُلّـــى تَشِـــفُّ، ومـــاذا في الشّـــفوف وفي القُمصِ
وذات ابتســـام عـــن بُـــروقِ لآلـــئ مُـؤشّـــرةٍ لـيســـت بِـرُوقٍ ولا عُـقْـصِ

[1] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص103.

[2] – المصدر نفسه ، ص219.

[3] – ابن الأبّار. أبو عبد الله محمد ابن الأبّار القضاعي البلنسي. ***الديوان***، قراءة وتعليق :أ. عبد السلام الهرّاس، 1420هـ – 1999م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ص 349.

افتتح الشاعر قصيدته بمقدمة غزلية، مقلِّداً الشعراء العرب القدماء في افتتاح مدائحهم بالغزل شاكياً آلام الهجر والحرمان، مصوّراً حبيبته في صورة تقليدية متزينة بالحلي، ومخضّبة بالحنّاء، وتعطرت بالنبات، ويعرض ابن الأبّار الصور الحسية في وصف المحبوبة، مبيّناً أثرها في نفسه. وقد يمزج الشاعر الغرناطي بين الغزل والخمر في مقدمة القصيدة، ثمَّ ينتقل إلى غرض القصيدة وهو المديح، كما في قول ابن زمرك يمدح السّلطان أبي عبد الله : (من المتقارب)[1]

إذا ما وجدتُ لسلمى سبيلا رشفتُ رُضاباً لها سلسبيلا
وَبتُّ أُعَلُّ بمسكٍ وراحٍ بثغرِ أقاحٍ يروي العليلا
وضايقتُ فيها نطاق الوشاحِ ولمْ نَطْعمِ النّومَ إلّا قليلا

إلى أن يصل إلى مديح السلطان، ولقبه المستعين، فيصفه الشاعر بالإمام الجليل تقديراً لمكانته في نفسه.

لأشكوكِ إنْ عُدْتِ من بعدها إلى المستعينِ الإمامَ الجليلا

وتمتزج مقدمات الغزل عند ابن زمرك بوصف مشاهد الطبيعة من روض وزهر، كما في قوله:(من البسيط)[2]

يا روضةَ الخدِّ من وردٍ ومن آسِ فيكِ الشفاءُ ومنك المُمْرضُ الآسي
لألاءُ ثَغْرِكِ في لَدْنِ القَوامِ حكى زهْراً تفتَّحَ في غُصنٍ منَ الآسِ

وقد يلجأ الشاعر إلى اسم الطلل أو اسم محبوبته في مقدمته، وربما كانت الأطلال وأسماء المحبوبة رموزاً لذكريات، عبر عنها ابن الخطيب بوضوح في قوله :(من الطويل) [3]

ليَ الله كم أهذي بنجدٍ ، و"حاجرٍ" وأَكْنِي " بِدَعْدٍ " في غراميَ أو "سُعْدَى"

ولسان الدين يعبّر في تلك المقدمات عن حبّه وشوقه للأصول والجذور الشرقية. وأيّاً كانت تفسيرات ودوافع المقدمات الطللية عند ابن الخطيب التي تشكّل جزءاً ورافداً حقيقياً من مقدمات تلك الفترة، فهي كثيرة وغنية بدلالاتها التي تكشف عن قراءة جديدة لكل نصّ من نصوص تلك المرحلة.

وصورة المقدمة الطللية والغزلية هنا تشبه إلى حد كبير مع مقدمات الشعر العربي القديم، وأخذت أشكالاً متعددة منها وصف الأطلال، ورحلة الظعن، ثمَّ المحبوبة، وقلّما كان الشاعر الغرناطيّ يجمع في المقدمة الطللية بين هذه الأشكال مجتمعة.

2- المقدمات الحجازية .

ارتبطت المقدمات الحجازية في الشعر الغرناطي بالمدائح النبوية والميلاديات، وشعر التصوف، فنرى الشاعر يهتمّ بها اهتماماً ملحوظاً، ويعبّر بفيض عاطفي حزين عن الشوق إلى مغاني الحجاز، والتغزّل بشخصية النبي غزلاً صوفياً رمزياً، ويعلن قربه الدائم منه مهما شطَّ المزار. ويمكن تعليل كثرة هذه المقدمات وشوقهم إليها في

[1] – ابن زمرك الاندلسي. ***الديوان***، ص 57.

[2] – المصدر نفسه . ***الديوان***، ص 61.

[3] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص 354 .

شعر الأندلسيين كلّهم على حد تعبير الدكتور عصام قصبجي:" فلقد كان توقد شوقهم تعويضاً باطنياً عن عجزهم في زيارة الحجاز وما يخلفه في النفس من ألم".[1]

وليس شوقهم في حقيقة الأمر إلّا إلى الرسول (ص) وصحابته، فيعلن الشاعر شوقه إلى النبي صراحة دون رموز أو كناية. كما نجد عند ابن عربي، ولا يخفى ما لابن عربي من قصائد كثيرة في المدائح النبوية، وهو في هذه القصيدة يعبّر عن شوقه المستمرّ إلى الكعبة وأرض الحجاز، فيقول:(من مجزوء الرمل)[2]

كعبة للسرِّ يسعى لها كلُّ من يمشي على قدم
من أراد الحج يقصده من جميع الغُرب والعجم

وذكر المناطق الحجازية ما هو إلّا تعبير عن الشوق إلى الكعبة ومثوى النبي (ص)، وتعلقه بها ، فهو يحثّ الركب على زيارة الأماكن الحجازية المقدسة، وهذا الخطاب مكرر في القصائد النبوية، كما في قول ابن الجنّان: (من الطويل)[3]

فلله ركبٌ يممموا نحو مكةٍ لقد كرّموا قصداً وجلوا مناسجا
أناخوا بأرجاء الرجاءِ وعرسوا فأصبح كلٌّ مايزَ القدح فالجا

ويعلن الشاعر الغرناطي عن حنينه الدائم لمرابع النبوة وعن شوقه لنسائم الحجاز، وصبا نجد التي يجد فيهما راحه وروحه، ويكثر إيراد أسماء الأماكن في غرض المولديات، التي تمثل الحجازيات أكثر المقدمات مناسبة لها ومن ذلك قول ابن الخطيب:(من الطويل)[4]

سقى علم الجَّنان فالجزعَ فالبانا مُلِثٌّ يباري الرّهم سحَّاً وتهتانّا
معاهد لذَّاتٍ، ربوع مآربٍ هَصَرْنَا بها غصن الشَّبيبة فينانَا

ولا ريب أنَّ هذا النموذج يؤسّس لعلاقة وثيقة بين المكان ونفسية الشاعر، ولذلك كانت النفس شريكاً واضح المعالم في الحجازيات، وبهذا تتبدى الصلة الوثيقة بين المقدمة الحجازية والغرض الرئيس الذي يغلب عليه غرض المديح. وهناك صلة أخرى بين الأماكن الحجازية والأسماء التي يوردها الشاعر الغرناطي في مقدماته كهند وسعدى ولبنى وأسماء أخرى تنمُّ عن روح هائمة بمرابع الحجاز، و لقد آل ذلك كلّه إلى رقةٍ بالغة ميَّزت المدائح النبوية عامةً والمقدمات الحجازية خاصةً. وقد ارتبط الحديث عن الحجازيات بذكر الطلول ورسومها البالية فيبدو من ذلك ما يمكن أن نسميه بالمقدمة الطللية الحجازية، وليس نادراً أيضا أن يمتزج الحديث عن الحجازيات بذكر الغزل وما يعانيه الشاعر من حرِّ الشوق ونار البعاد، في غزل الصوفي يتسامى فيه الشاعر عن مفاتن الجسد .

[1] – قصبجي. عصام. ***لسان الدين بن الخطيب ، حياته و فكره و شعره*** ، ط1، منشورات جامعة حلب، 1982م. ص 272 .

[2] – ابن عربي. الشيخ الأكبر أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسي. ***الديوان***، شرحه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ – 1996م، ص10.

[3] – ابن الجنّان. ***الديوان***، ص 76.

[4] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الثاني، ص 580.

3- **المقدمات الخمرية .**

"كانت الخمريات من أكثر الفنون الشعرية ذيوعا بين شعراء الأندلس، مخالفين ذلك التحريم الديني للخمر، وهو رجس من عمل الشّيطان ، بيد أنَّ ما كان يشربونه لم يكن كله من العنب، بل عرفوا صنوفاً أخرى من العصير كان شربها حلالاً بشروط، أو لم ينته الناس في أمرها إلى رأي، وكانت عادة الشاربين أن يجتمعوا على الكؤوس في الصباح (الصبوح)، أو في المساء (الغبوق)، وكانوا يُبَرِّدُون الخمر ويمزجونها بالماء. وأغلب ما يكون اجتماعهم للشراب في قاعة واسعة، أو في رحبة الدار أو في موضع من مواضع اللهو في الرياض".[1]

ورأى بعض النقاد أنَّ فنَّ الخمريات تراجع نهاية عصر الموحدين بعد سقوط أكثر مدن الأندلس بيد الإسبان، "ليحل محلها رثاء المدن، الذي فاضت عبقرية ناظميه، فأبدعوا أروع المراثي وأصدقها وقعاً في النفوس. وفي عصر غرناطة، الذي اتَّسم بالرخاء والازدهار الثقافي، بدأ هذا الفن يستعيد عافيته، وساعد على ذلك النهوض بالغناء الذي ذاع وفشا حتى في دكاكين الحاضرة غرناطة. وعرفت الأندلس في أيام السلطان أبي الحجاج يوسف وابنه الغني بالله طائفة من أئمة الشعر الخمري أمثال: ابن الجياب، ويحيى بن هذيل، وابن خميس، وابن خاتمة الأنصاري، وابن الخطيب، وابن زمرك، وغيرهم".[2] ومن المعروف انتشار الفكر الصوفيّ في الأدب في عصر بني غرناطة، لذلك كانت المقدمة الخمريّة في الشعر الصوفي مجرد مدخل للوصول إلى غرض التصوّف، كما هي الحال عند ابن الجياب في قوله:(من الرجز)[3]

هات اسقني صِرفاً بغير مزاجِ راحي التي هي راحتي وعلاجي
إنَّ صبَّ منها في الزجاجةِ قطرةٌ شفَّ الزجاج عن السنا الوهّاجِ
....
ما أنت إلّا درّةٌ مكنونةٌ قد أُودِعَتْ في نطفةِ أمشاجِ
فاجهد على تخليصها من طبعها تعرجْ بها في أرفعِ المعراجِ
واشددْ يديك معاً على حبل التّقى فإنْ اعتصمت بهِ فأنتَ الناجي

وتمتزج المقدمات الخمرية عند ابن الخطيب بوصف الطبيعة، وهو يتنقّل من ذكر الخمرة إلى وصف الرياض والأزهار؛ لأنها مكمّلة لجلسات الأنس والطرب، كقوله: (من الوافر)[4]

أدرها بين مزمارٍ و عُودِ ودونك فاغتنمْ زمن السُّعودِ
فَبُرْدُ الرَّوض مرقُومُ الحواشي و درُّ الطَّلِّ منظوم العقودِ
وجنح اللَّيل مطويُّ النَّواحي و ضوء الفجر منشور البنودِ
وخذها، و البلابل في خصامٍ ونجم الصُّبح ملتهب الوَقُودِ

[1] – جوميت. إميليو. ***الشعر الأندلسي***، ترجمة : حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار الرشيد، 2005م. ص 66.

[2] – طويل. يوسف. ***مدخل إلى الأدب الأندلسي***، ط1، بيروت، دار الفكر، 1991م.ص 67.

[3] – المقرّي التلمساني، الشيخ أحمد بن محمد، ***نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب***، تحقيق: د. إحسان عبّاس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، 1968م، ص 435.

[4] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص 282 .

وهذا المشهد يشابه مشاهد أخرى سابقة يكررها الشاعر ويعيد الوقوف عندها مراراً في وصف شعري رائق جميل. والميزة الثانية التي نجدها في المقدمات الخمرية عند ابن الخطيب أن المعاني والطريقة التي صاغها بها لا تنبئ عن أصالة هذا الفن، فقد نظمت بتكليف من الأمير والسلطان فيقول في تعليقه على قصيدة خمرية " و أمرني – رحمه الله – بنظم أبيات صبوحية على عادته من الانحطاط عن الجزالة ولين عريكة الكلام فقلت: (من الكامل)[1]

خذها فقد وضـــح الصَّـــباح ولاحـــــــــــــا والرَّوض يهدي عَرْفَهُ النَّفَّاحَـــــــــــــــــا
مازال يكتُمُ من حديث نسيمـــــــــــــــــه والآن، أمكنه الحديث فباحَـــــــــــــــــا
لـمَّـا رأى جـيـشَ الصَّـــــبـاح مشـــــمِّـراً عمَّت مضاربه رُبىً وَ بِطَاحَـــــــــــــــــا

وإذا صح أنَّ ابن الخطيب افتتح قصيدته بالمبادرة إلى الخمر فإنَّ صنيعه هذا لم يكن بقناعة منه كما ذكرنا في مقدمته التي أعدَّها قبل افتتاحية القصيدة، فابن الخطيب من أسرة متدينة، وكان يتحمل مسؤوليات كبيرة في الدولة، وهذا من شأنه أن يكفّه عن القول في الخمر المحرّمة شرعاً، ولعلّه لذلك كان يقدم لنا الأعذار بأنه قال شعراً في الخمرة تحت الأوامر أو للمحاكاة.

4- **مقدمات الطيف .**

إنَّ المقدمات التي يصـف فيها شـعراء غرناطة الطيف قليلة ونادرة، هذه المقدمات التي كثُر جريانها على ألسنة الشعراء العرب فكرروا معاني من أرسى تقاليدها في العصر الجاهلي، " ويروى أن عمرو بن قميئة هو أول من ابتكر هذا اللون من المقدمات التي يصف فيها الشاعر طيف محبوبته " [2]. ومن مشاهد الطيف التي كررها الشـاعر لسـان الدين بن الخطيب في مقدمات قصـائده دون أن يزيد عليها، ما نظمه في قصـيدة كاملة في غرض مدح السلطان أبي عبد الله بن الوليد بن نصر، فيقول: (من الكامل)[3]

أهلاً بطيفٍ زارني غسق الدُّجـــــــــــــى فأعاد ليلتنا صباحـــــــاً أبلجَـــــــــــــا
فتحَتْ زيارته لصبٍّ هائـــــــــــــــمٍ بابَ القبول ، و كان قِدْماً مرتجَـــــــــــــا
لله درُّك من خيالٍ مُطْمِـــــــــــــــعٍ علقت لنا بحباله أيدي الرَّجَـــــــــــــا
كيف اهتـديـت ، و هـل بـدا لـك مضـــجعٌ خطَّ النَّحول عليه سطراً مدمجَـــــــــــــا ؟
يا سالكاً بِمُحِبِّه طرق النَّـــــــــــــوى هلاّ سلكت إلى التَّواصل منهجَـــــــــــــا

فهو يرحب بطيف ممدوحه الذي ألمَّ به و زاره في حالك الليل الطويل، فحوله إلى صباح مشرق مليء بالمسرة والسعادة، طيف اهتدى لمشوق متيّم حزين حاول التعلّق بحباله علّه ينال منه المنى والتواصل، وجاز بمحبِّهِ القفار وعرف المسالك الصعبة، فعانى لوعة الفراق، وأثار كوامن الشوق في نفسه، ويطلب في خاتمة نصه الشفاعة والرضا من ممدوحه. ويحضر الطيف في مشهد تصويري آخر، يشبِّه فيه الشاعر ساعات الأنس التي حظيت فيها الأنفس بلقاء الممدوح بالخيال اللطيف الذي داهمه في وقت الليل فيقول: (من المتقارب)[4]

[1] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأوّل ، ص 221 .

[2] – عطوان. د. حسين، ***مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي***، ص 104.

[3] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص 204

[4] – المصدر نفسه ، المجلد الثاني، ص489.

عزيزٌ بأنفسنا أن نـــــــــــــــــرى ركابـــــــــك مؤذنـــــــةً بارتحـــــــالِ
وقد خَبَرَتْ منك خلقاً جميـــــــــــــــلاً أنافَ علـــــــــــى درجات الكمـــــــالِ
وفازت لديك بســـاعات أنـــــــــــــسٍ كمـا زار في اللَّيـل طيفُ الخيـــــــــالِ
و لـــــــولا تعلُّلنـــــــــا أنَّنـــــــــــا نزورك فوق بساط الجـــــــــــــلالِ
لَمَا فترَتْ أنفسٌ مـــــــــن أســـــــــىً ولا برحت أدمعٌ في انهمـــــــــــــالِ

يبدو هذا المشهد وكأنه حكاية منسوجة بخيوط الخيال، فالآمال معلّقة بزيارة الممدوح فوق بساط الجلال ولولا ذلك لما ذهب الأسى ولا انفكّت الأدمع من الانهمار. وتتميز هذه المقدمة من حيث الصياغة والأسلوب بوفرة الصور البيانية التي تعتمد عناصر التشبيه والتجسيد المساندة عنصر الخيال في النظم وحسن التأليف.

5- مقدمات الشيب .

ومن مقدمات القصيدة الغرناطية مقدمات الشيب التي تعبّر عمّا يعتلي نفس الشاعر من رؤية جديدة للحياة بعد ما غلب الشيب، وأَفِلتْ أيامُ الصبا والشباب، ولكنّ ابن زمرك يرفض الانصياع للشيب، ويعود بنفسه إلى أيام الشباب والهوى، ويرى بعد الشيب ولادة جديدة، تشبه تجدّد ثمرة اللّوز بعد تفتّق قشرها فتغدو أطيب وأقوى وإنْ كان في ذلك جهالة، قوله: (من الطويل)[1]

أطَـعْـتُ الـهـوى بـعـدَ الـمشـــيـبِ جَـهـالَـةً وأقـبـحُ حـالِ الشّـــيـخِ يـوْمـاً إذا صَـــبَـا
فـأشـــبـهـتُ حَـالَ الـلّـوزِ فـي حـالِ نـورِهِ إذا شـــابَ منْـهُ الفوْدُ يســتقبـلُ الصّـــبـا

وفي قصيدة أخرى من القصائد الإخوانيّة، يُصرّ ابن زمرك على نفس المعنى متسائلاً عن حقّ الصديق في التصابي بعد الشيب، ولكنَّ الشك والاضطراب النفسي يظهر جلياً في أسلوب الاستفهام الإنشائي، وهو في ذلك يحاول أن يبيح لنفسه ما يراه في غيره، فقال: (من الطويل)[2]

أبـعـدَ مشـــيـبٍ جَـاءَ إثـرَ شـــبـابِ يـعـودكَ عِـيـدٌ مِـنْ هَـوى وَتَصَـــابِ ؟

أمّا ابن الخطيب فكانت مقدمات الشيب عنده مدخلاً للتفجع على الشباب، وقد نفث فيها آلامه، مصوّراً ذكرياته، ويبدو أنَّ هذه المعاني التي عرضها في مقدماته انسجمت مع واقع حياته وعمره الذي بلغ منه عتياً فأخذ يرددّها ثم ينفذ منها إلى موضوعاته وأغراضه الأساسية على شاكلة ما نقرأ في أبياته التالية: (من الطويل)[3]

تذكَّرت عهداً للشَّباب الذي ولَّـــــــــــي فصـــاب لـــــــــه تَسْـكَابُ دمعيَ و انهلاّ
و قلت ، و قد آنســـت بارقة الهـــــــــوى عهودَ الصِّـــبـا ، يـا مـا ألـذَّ و مـا أحلى !
إذا العيش غضٌّ و الشَّـــبيبـة روضـــــــــةٌ أزاهرها تُجْنَى و أنوارها تُجْلَـــــــــــــــى
وما كان إلاَّ كالخيال لنائـــــــــــــــمٍ ألمَّ ، و يـا ســرعـان مـا قوَّض الرَّحْـــــلا

افتتح الشاعر القصيدة ببكاء حار على الشباب كادت نفسه تتفطر وتتساقط حسرة عليه ، فقد ودَّع الشباب، بل إنّ الشباب هو الذي ودّعه بما فيه من عجائب تروق الناظرين ، وغادره مسرعاً كحلم جميل.

[1] – ابن زمرك الأندلسي. ***الديوان***، ص 99.

[2] – المصدر نفسه . ***الديوان***، ص 171.

[3] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الثاني، ص766.

وقد تمتزج مقدمة الشيب بالغزل، فيكون من معانيها الاعتذار عن التغزل، بعد أن رحل الصِّبا وغزاه المشيب، ومن تلك المعاني الحواريّة بين النفس التي لا تنفك تَكْلَفُ بالهوى وتتشبث به في مرحلة الشباب والصبا، وبين الشيب الذي يرقبها بعين واعظ ومحاسب على تفريطها في جنب الله، ويحسّ القارئ فيها بصدق التعبير، وفي هذه المقدمة حديث مع النفس نابع من أعماقها ومن تجربتها في أحوال الدهر الخائن المتقلّب كما في قوله: (من الكامل)[1]

والنّفس لا تنفكُّ تكلف بالهـــــــــــــــوى والشَّيب يلحظها بعيـــــن رقيـــــــــــبِ
رحـل الصِّـــبـا فـطـرحْـتُ فـي أعـقـابـه ما كان من غزلٍ و مـــــــــــن تشـبيبِ
أتـرى الـتـغـزُّلَ بـعـد أن رحـل الصِّـــبـا شأني الغداةَ إذا المشيب نسيبِـــــــــــــي

وهذه الأبيات تعبّر عن الحسرة والأسى على ما ذهب وفات دون عودة، وأمثالها في مقدمات شعر العصر الغرناطي ليست بالنادرة، وهو ما أحلَّ مقدمات الشيب محلَّها المكين في صدارة الشعر المعبّر عن تجربة الشاعر وتأمّله في العالم من حوله .

6- مقدمات الحكمة.

"تطوّر شعر الحكمة بتأثير الترجمة عن الأمم الأجنبيّة واتِّساع آفاق الثقافة. وكان أول مظاهر هذا التطوّر أنَّ شعر الحكمةِ أصبح موضوعًا ثابتًا في الشعر العربي".[2] ومن المقدمات ما يجنح إلى الحكمة والتأمّل وربْط ذلك بموضوع النص، كأن يتألم الشاعر من غدر الأصدقاء أو يعتبر بصروف الدهر وحوادثه، أو يعتقد ببعث الحياة التي هي محض سراب. فيشعر شعوراً عميقاً بأنَّ أصدقاءَه كانوا يضمرون له الشرَّ مهما أظهروا له من الود، وهو في ذروة نفوذه، يؤلف نظرية يستقيها من تجربته في الحياة مفادها أن الصداقة وهمٌ ما دامت مقترنة بالأنانية فأضحت أشبه بعنقاء أسطورية، وفي هذا المعنى يقول ابن الخطيب:(من الكامل) [3]

كِلني لعلمي في صـــحابي ، إنَّنـــــــــــي بهمُ خبيرٌ ماهـــــــــــرٌ، و مجـــــرِّبُ
لـك ظـاهرٌ منهم حكمْتَ بـه ، ولـــــــــي منهم بواطن ، عـــــــــــن عيانك غُيِّبُ
لا تستقرُّ على التَّنافس صحبـــــــــــةٌ ومودَّة الأكفـــــاء أمـــــــــــرٌ يصعبُ
والماء إن ألف الثَّواء تغيَّـــــــــــرت أوصافه وعلا عليـــه الطُّحْلـــــــــــبُ
إنَّ الصَّداقة لفظـــــةٌ مدلولهـــــــــــا فـي الـدَّهـر كـالـعـنـقـاء بـل هـو أغـربُ

وتمتزج مقدمة الحكمة أحياناً بمعاني المقدمات الأخرى كالهجاء، والأطلال، وغيرهما، ومن المقدمات التي جمعت الحكمة بالهجاء كما في قول ابن الخطيب: (من المنسرح) [4]

كـن مـن صـــروف الـرَّدى عـلـى حَـذَرِ لا يقبل الدَّهر عـــــــذر معتـــــــــذرِ
ولا تعوّل فيه علـــــــــى دَعَـــــــةٍ فأنت في قُلْعَةٍ وفـــــي سفـــــــــــرِ
فكلُّ ريٍّ يقضي على ظمـــــــــــأ وكلُّ أمنٍ يدعـــــــو إلـــــــى غَرَرِ

[1] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص 128 .

[2] – هدّارة. محمد. ***اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري***، دار المعارف، القاهرة، 1963م، ص 448.

[3] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص 111 .

[4] – المصدر نفسه ، المجلد الأول، ص 428 .

وكلٌ حيّ فالموت غايتـــــــــــــــــــــــــه وكلٌ نفعٍ يدني إلـــــــــــــــــــــــــى ضررِ

والحكمة في هذا التقديم تدور حول الموضوع، فقد أوردها ابن الخطيب تمهيداً لغرض السخرية والاستهزاء بالوزير إبراهيم بن أبي الفتح الذي حاز مقاليد الوزارة بواسطة القدر الذي يستطيع أن ينحدر به إلى أحطِّ المراتب بعد أن ساهم بترقيته و رفع شأنه. تلك هي المعاني التي دارت عليها حكمة لسان الدين بن الخطيب في مقدمات قصائده، ولا ريب أنها تقليدية تماثل تلك التي تغنّى بها شعراء الزهد والصوفية، ولكن استقاها من ثقافته ومن تجاربه في الحياة وتأمّله الحكيم في تقلبات الدهر وحوادثه.

7- مقدمات الاعتذار.

تتعدد أنواع المقدمات الشعرية في عصر بني الأحمر، ومنها المقدمات الاعتذارية، وهي نادرة، ويبدأ ابن زمرك قصيدته بمقدمة اعتذارية لينتهي بعد ذلك إلى غرض القصيدة، قوله: (من البسيط)[1]

هـل من معينٍ على الأشـــجان والفكر أو مســـعدٍ في قضـــاء اللّيـل بـالســـهرِ

قـد عيـل يـا خيـر من لاذ الغـريـب بـه بـين الـرجـاء وبـين الـيـأس مصـــطـبـري

مـا زلـتُ تُـنـهضـــنـي الأشـــواق نـحـوكـمُ وأنـثـنـي مـن حـيـائـي دائـمَ الـفِـكَـرِ

ثالثاً : حسن التخلّص .

التخلّص يدلّ على مهارة الشاعر، وقدرته على الانتقال من بداية الكلام إلى الغرض المقصود بيسر وسهولة ورشاقة، وتكون فيه المعاني منسجمة، فلا يشعر السامع بالانتقال من نسيب، إلى مدح أو غيره. ويرى النّقاد أن حسن التخلّص في وصل الشاعر كلامه وصلاً لطيفاً بلا انفصال للمعاني، دون اختلال في النسق أو تباين في أجزاء النظم. ولم يقفوا في التخلص عند حدود الشعر القديم، إنّما أدخلوا الشعر المحدث في حسابهم وأحكامهم، وعدّوا ما يصدر عنهم في هذا الشأن أحسن وألطف ممّا عند المتقدمين ويعللون ذلك بقولهم كما يتحدث النّقاد عن التناسب بين الأغراض المختلفة وحسن التخلص من غرض إلى آخر في القصائد ذات الموضوعات المتعددة، دون أن يبعد الكلام عن التنافر، ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد وعدُّوا التخلص الأول إلى الموضوع الرئيس هو النقلة المعنوية الأبرز بين تلك الموضوعات وعليه يعوّلون.

كما في قول ابن الخطيب السلماني في مدح سلطان المغرب أبي عبد الله محمد بن نصر: (من الطويل) [2]

وأيّام أنسٍ قد نعمنـــــــــا بقربهـــــــــا وقد نام عنَّا حاســـــــــــــــدٌ و عذولُ

حلفت بربِّ الرَّاقصـــــــــــات إلى منىً لهنَّ إلى البيت العتيق ذميـــــــــــــــلُ

لجودُ أميرِ المؤمنين محمَّـــــــــــــــد بكلِّ مرامٍ في الزَّمان كفيـــــــــــــــلُ

ومنه قول أبي القاسم بن قطبة الدُّوسي في مدح أبي الحجاج:(من الطويل) [3]

ولئن جرت من مقلتيَّ مدامـــــــــــــــعٌ ووردت فـي وصـــل الـحـبـيـب الأكـدرَا

فلكم صفا ماءُ الحياة بيوســـــــــــــــفٍ وغدا به ربع المظالـــــــــــم مقفـــــــرَا

---

[1] - ابن زمرك الأندلسي. ***الديوان***، ص 174.

[2] – ابن الخطيب. ***الكتيبة الكامنة، فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء الثامنة***، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، طبعة أولى، 1983م، ص281 – 282 .

[3] – ابن الخطيب. ***الكتيبة الكامنة***، ص 274 .

الآخذ الأرواح يوم نزالـــــــــــــــــــــــــــه والتَّارك البطل الكمـــــــــــــــــــــيّ معفِّـــــرا

وقد أحسن الشاعر في التخلص من الغزل إلى المدح، فإنه ذكر أولاً جريان الدموع والفشل في الظفر بوصل الحبيب، ثم أدرج في البيت الثاني ذكر الممدوح بما يناسب ما هو من الاكدر فذكر صفاء ماء الحياة، فصار الكلام كأنما أفرغ إفراغاً واحداً .

وتنوّعت أساليب التخلّص عند ابن الخطيب، لتأكيد قدرته على تلاحم أجزاء الكلام، والتئام أساليبه مع اختلاف المذاهب، وتباين المقاصد والأغراض، فاعتمد الربط المعنوي، وهو أساس التخلص وجوهره، واستند على أساليب الربط التركيبي المتنوعة ؛ لتشمل الاستفهام والعطف، والقسم والشرط، وما إلى ذلك من أساليب الربط بين الجمل التي برع ابن الخطيب في صوغها كربطه بالاستفهام قوله بعد مقدمة غزلية (من الكامل)[1]

يا بَدْرَ تِمٍّ يهتدي بضيائـــــــــــــــــــــــه ساري الفلاة ، و ليلتـــــــــي ليـــــــــــلاءُ

أشـــكوك ؟ أم أشـــكو إليـك صـــبـابتي أنت الدَّواء ، و منك كـــــــــــــــان الدَّاءُ

ما لجَّ داءٌ أو تفاقم معضـــــــــــــــــلٌ إلاَّ وفي يمنى يديـــــــــه شفـــــــــــاءُ

فقد استعان بالاستفهام الذي جعله في موضع العطف بـ " أم " المعادلة، للدمج بين المقدمة والغرض الأساسي في مدح السلطان، ويشعر القارئ بالرابط المعنوي إلى جانب الرابط الأسلوبي المتمثل بانتقال معنى الشفاء من المحبوبة إلى الممدوح ، فتمكَّن من القافية وانتقل بلطف من بيت إلى أخر.

رابعاً : خاتمة القصيدة .

إنَّ خواتم القصـــيدة لا تقلّ أهمية عن مطالعها، فالانتهاء نظير الابتداء، وقاعدة القصـــيدة ؛ لأنها آخر ما يبقى منها في الأسماع و يثبت للذكر، والأعمال بخواتمها " وما وقع فيها من الكلام أحسن ما اندرج في حشو القصـــيدة، وأن يتحرّز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه أو معنى منفّر للنفس عما قصـــدت إحالتها إليه"[2]. لذلك وجب الاعتناء بخاتمة الكلام، فيجعل آخره عذب اللفظ، حسـن السـبك، صـحيح المعنى، والإسـاءة فيه تلغي كثيراً من أثر الكلام الحسـن المتقدم عليه. وجاءت الخواتم في قصـيدة الشـاعر الغرناطي ثرية بالمعاني والدلالات المختلفة في شـــتى الأغراض كالدعاء، والتهنئة والمبالغة في المدح، وتقديم العذر على التقصـــير والسلام، والحكمة في الرثاء، وتضمين الأقوال والأشعار، وغيرها من الإشارات التي تجعل القصيدة جميلة في خاتمتها إنْ عمد الشـاعر فيها إلى حسـن القول وملاءمته للغرض والحال. وممّا جاء في المبالغة قصـيدة ابن الجنّان في مدح الرســول والمؤلفة من مئة وأربعين بيتاً بدأها كلها بلفظة ســـلام، جاء مطلعها ملائماً للغرض ومتناسقاً مع المقدمة والخاتمة، ومطلعها (من الطويل)[3]

ســـــلام علـى من جـاء بـالـحق والـهـدى ومـن لـم يـزل بـالـمـعـجـزات مـؤيـدا

ســـــلام علـى خـيـر الـبـريـة شـــيـمـةً وأكـرمـهـا نـفســـــاً وبـيـتـاً ومـحـتـدا

[1] – ابن الخطيب. ***الديوان***، المجلد الأول، ص 93 .

[2] – القرطاجني. حازم. ***منهاج البلغاء وسراج الأدباء***، ص 285 .

[3] – ابن الجنّان. ***الديوان***، ص 80.

حتى يصل إلى خاتمة القصيدة، فيكرّر ما كان قد ذكره في المطلع والمقدمة والغرض من معانٍ. ولكنه يبالغ في غرض المدح، فيقول في الخاتمة في القصيدة نفسها.[1]

سلام عليهم مثل طيب ثنائهم هو المسك أو للمسك من عرفه جدا
سلام عليهم إن حُبَّ جميعهم لتُلفيه في حبِّ احمدَ أحمدا

ولكن ابن الخطيب الشاعر المدَّاح ختم بغير الدعاء؛ إذ نرى في خواتيمه دلالات أخرى، كالمبالغة في المدح كما في قوله: (من الكامل)[2]

والدَّهر محتفلٌ لِمُلْكِكَ محتفٍ يبدي على أثر العجيب عجيبَا

ومن وجوه العناية بالخاتمة تضمين بيت أو جزء بيت مشهور، أو آية قرآنية، أو مثل متداول، وهو وجه معروف في الشعر العربي : قديمه وحديثه ؛ وفي الدّراسات النقديّة المعاصرة بالتناص، كتضمين ابن الخطيب للآيات القرآنية في خاتمة قصائده في قوله: (من الطويل)[3]

ونادى لسان الفتح في عَرَصَاتِهم كذلك مكَّنَّا ليوسُفَ في الأرض*

خاتمة :

وهكذا نجد أنَّ شعراء غرناطة اتبَّعوا سنّة الأقدمين في نهج القصيدة وبناء هيكلها، بدءاً بالمطلع فالمقدمة ثم التخلّص وانتهاءً بالخاتمة، وأبدوا عناية بصوغ المطلع كمفتاح للقصيدة، ووضع اعتبارات مهمة ساروا عليها أثناء نظمه مطالع شعره، ورغم إدراكهم أهميتها في جذب المتلقي، ونراهم قد تعثَّروا في بعضها، وهذا شأن الشعر والشاعر، وقد نوَّعوا في مقدمات قصائدهم وضمنّوها معانيَ مختلفة لم تكن غريبة مبتكرة في معظمها، إنّما مبذولة مكرورة في شكلها ومضمونها، إذ كانوا مكثرين في بعضها، مقلَّين في بعضها الآخر تبعاً للغرض والاهتمام، ولكن التخلص عندهم علامة من علامات الجودة والمقدرة في الانتقال من غرض لآخر بسلاسة ولطف، فقد استطاع الشاعر الغرناطي أن يربط بين المعاني المتعددة بأساليب مختلفة، وهذا دليل على مهارته في التنقّل البارع المحكم، وقد جاءت خواتيمه ثرية بالمعاني والدلالات المختلفة في شتى الأغراض، انطلاقاً من إيمانه بأنها لا تقلّ أهمية عن مطالعها، والإساءة فيها تلغي كثيراً من حسن الكلام المتقدّم عليها.

[1] – ابن الجنّان. ***الديوان***، ص 96.

[2] – ابن الخطيب. ***الديوان*** ، المجلد الأول، ص 105 .

[3] – المصدر نفسه ، المجلد الثاني، ص 638 .

* إشارة إلى الآية الكريمة (21) من سورة يوسف : **(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ)** .

المصادر والمراجع

1-ابن الأبّار. أبو عبد الله محمد ابن الأبّار القضاعي البلنسي. ***الديوان***، قراءة وتعليق: أ. عبد السلام الهرّاس، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1420هـ - 1999م،.

2-ابن الأثير. ***المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر***، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1939م.

3-ابن الجنّان الانصاري الأندلسي. ***شاعر المديح النبوي بالأندلس في القرن السابع الهجري***، الديوان، تحقيق: د. منجد مصطفى بهجت، 1410هـ، 1990م،

4-ابن الخطيب. لسان الدين السلماني. ***الديوان***، حققه: د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدّار البيضاء، ط1، 1409هـ، 1989م.

5-ابن الخطيب. لسان الدين. محمد بن عبد الله، ***الكتيبة الكامنة***، فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، طبعة أولى، 1983م.

6-ابن زمرك الأندلسي. محمد بن يوسف الصّريحي. ***الديوان***، تحقيق: د. محمد توفيقي النّيفر، دار الغرب الإسلامي، ط 1 ،1997م.

7-ابن عربي. الشيخ الأكبر أبو بكر محي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المرسي. ***الديوان***، شرحه: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1416هـ - 1996م.

8-جوميت. إميليو. ***الشعر الأندلسي***، ترجمة : حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار الرشيد، 2005م.

9-طويل. يوسف. ***مدخل إلى الأدب الأندلسي***، ط1، بيروت، دار الفكر، 1991م.

10- العسكري. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. ***كتاب الصناعتين***، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1952م.

11- عطوان. د. حسين. ***مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي***، ط1، دار المعارف بمصر، 1970م

12- القرطاجنّي. حازم. ***منهاج البلغاء وسراج الأدباء***، ط1، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، المطبعة الرسمية، تونس، 1966م.

13- قصبجي. عصام. ***لسان الدين بن الخطيب، حياته وفكره وشعره***، ط1، منشورات جامعة حلب، 1982م..

14- القيرواني. أبو علي الحسن بن رشيق. ***العمدة في صناعة الشعر ونقده***، تحقيق: د. محمد قرقزان، ط2، مطبعة الكاتب العربي بدمشق،1994م.

15- المقرّي التلمساني. الشيخ أحمد بن محمد. ***نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب***، تحقيق: د. إحسان عبّاس، المجلد الخامس، دار صادر، بيروت، 1968م.

16- هدّارة. محمد. ***اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري***، دار المعارف، القاهرة، 1963م.

The structure of the Andalusian poem In the era of the Browns of Red

*Dr. Issa Fares
** Dr: Ruaa Kadah
*** Rami Abdel Karim Khader

Abstract

The two-and-a-half-year-long Granada period produced the experiences of poets who contributed to the building of the literary and cultural civilization of Granada and wrote to witness the decline of that civilization when Granada fell in 1994. Although the Andalusian poem has received many studies, the study of the structure of the poem in the era of the children of the Red has not received sufficient attention. It should be noted that Moroccan and Oriental studies have provided rich material in the study of the ancient text , And these studies focused on the study of the experiences of specific poets, did not meet all the poets at that stage, and from here we should try to study the structure of the poem at that stage. It should be noted that the studies that dealt with the study of the term of building the poem are few studies, and that the most studies tend to study the term (structure poem), and the most important poets of this period: Ibn Sahl - Ibn Farkun - Ibn Abar - Joseph III - Abu Hayyan - Karim al-Qaisi - Ibn Zmrk - Ibn al-Ghamaz - Qasim bin Abdullah al-Balansi - Ibn Hobeish - Ibn al-Janan - Al-Fazazi - Abdul Karim al-Basti - Ibn al-Khatib

Keywords:
The beginning of the poem - Introduction poem - good disposal - Conclusion of the poem

---

*Professor - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Humanities Tishreen. University - Lattakia – Syria
**Teacher - Department of Arabic Language - Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia - Syria
**Graduate student (PhD) - Department of Arabic Language Faculty of Arts and Humanities - Tishreen University - Lattakia – Syria